العلم والوهم: مناظرة ادبية

بين السر أليفر لدج والاستاذ ارمسترنج

السر اوليفر لدج من اكبر علماء الطبيعة في هذا العصر لهُ في النور والكهربائية والمغنطيسية مباحث مبتكرة يستعمل فيها الرياضيات العليا كأنها من قواعد الحساب البسيطة مما يدلُّ على تفوُّق عقلهِ ودقة تحقيقهِ. هذا في العلم ومع ذلك تراهُ يخدع باعمال الذين يدَّعون استحضار ارواح الموتى والتحدث معها انخداعاً لا يجوز على اكثر الناس وقد انتقدنا خطتهُ هذه مراراً ولاسيما فيما كتبناهُ عن كتابهِ الذي ألَّفهُ عن ابنهِ ريمند بعد موت ريمند كما ترى في المجلد الخمسين من المقتطف بعنوان الحياة بعد الموت، الاَّ اننا نسبنا انخداعهُ هذا الى اتجاه عقلهِ كلهِ الى الامور العلمية التي فاق فيها الاقران. ونحن نعرف رجلاً يشبههُ من هذا القبيل كان استاذنا في العلوم الرياضية زمن الطلَب فان عقلهُ كان من العقول النادرة في حل المسائل الرياضية العويصة ومع ذلك كان يصدق ما لا يصدقهُ صغار الاولاد لبساطتهِ ويخدع بكل شيء خارج عن مواضيع مباحثهِ العلمية

***

في اوائل دسمبر الماضي دُعي السر اوليفر لدج لالقاء الخطبة التي تلقى تذكاراً للاستاذ هكسلي فجعل موضوعها « مذهب النشوء » تكلم على نشوء الموجودات بعضها من بعض الى ان وصل الى الانسان فقال ما ترجمتهُ «ثم ماذا حدث في عالم العقل. لا شبهة انهُ حدث نشوء وارتقاء. حدث ازدياد في القيمة وارتفاع في القامة. الاحياء الدنيا صارت مخلوقات عاقلة وزاد ارتقاؤها الى ان نشأ الانسان منها. وما هو الانسان. ان كانت بالموت نهايتهُ صحَّ لنا ان نشك في الفائدة من وجودهِ ولكن ان كان يبقى بعد الموت كما اعلم فقد أُعدَّ لهُ ارتقاء مستمرّ. ان آلة الكون الطبيعية استعملت لكي تجعل شأناً للكون العقلي والروحي. آلة النسج الميكانيكية تنسج شقة جميلة موشاة ولكن الشقة تمزق وتخلف وكذا ما يصنعهُ الانسان من الصور والتماثيل ولكن ما ينظمهُ من الاغاني والاشعار فيهِ جرثومة الخلود وقد يبقى ما دام الانسان »

فكتب الاستاذ هنري ارمسترنج في مجلة نايتشر في السادس من فبراير هذه السنة يقول « اطلعت على خطبة هكسلي. وللسر اوليفر لدج اسم كبير ولآرائهِ شأن عظيم لدى

الجمهور بما لهُ من المقام في العلم ولا شبهة انهُ يحق لنا ان نطلب منهُ ان ينفصل عنا قبلما يقول على ملإٍ من الناس « وما هو الانسان. ان كانت بالموت نهايتهُ صح لنا ان نشك في الفائدة من وجودهِ ولكن ان كان يبقى بعد الموت كما اعلم فقد أُعدَّ لهُ ارتقاء مستمرٌّ » اما نحن معشر العلماء فقلما نستطيع ان نقول « نعلم » ولاسيما في المسألة العظمى التي اشتغلت بها عقول الناس في كل العصور . وخير لنا ان نتشبع بتعجب الشاعر الذي قال

عليك بالصبر يا انسان ما عصفت ريح الشدائد او حاقت بك النوبُ
للموت شأن خفيٌّ لستَ تدركهُ وسرُّهُ في بطون الغيب محتجبُ

فاجابهُ السر اوليفر لدج في عدد ٢٧ مارس من مجلة نايشر بقولهِ

« يظهر لي ان صديقي الظريف الاستاذ ارسترنج يشك في اشياء كثيرة مما نقوم عليهِ ادلة راهنة ويفتخر بشكهِ . ولكن لا مزية للشك فان رفض الدليل المتين سخافة كالتمسك بالدليل السخيف . وموقفهُ هذا يحرمهُ من الابتهاج بما كُشف في هذا العصر من الامور الجليلة لانها لا تنطبق على رأيهِ . ويحسن بالمرء ان يكون لهُ رأي ولكنهُ قد يتعصب لرأيهِ فيصير معبوداً لهُ . ويظهر لي انهُ أُلف الابتعاد عن السلطات في سياسة التعليم التي اتبعها وجرى على اساليب اخرى يحسبها اولى بالاتباع حتى صار لا يكاد يرى ما في الآراء الجديدة من الصحة اذا عرضت لهُ

« الاَّ ان غرض العلم معرفة الحق لا التردد والجهل . والحذر حسن جدًّا ولكنهُ قد يخطئ الى تجنب البحث . وارجح انهُ لو وُجد الاستاذ ارسترنج في عهد غليليو لكان بين الذين كفَّروهُ ولرأى الآن في مذهب النسبية ما يبرر عملهُ . لكن غليليو كان محقًّا في دعواهُ ولو لم يكن قادراً على اثباتها الاثبات الكافي. والروَّاد يكونون في الغالب متقدمين على اهل التقليد

« ثم ان الاستاذ ارسترنج طلب مني ضمناً فيما كتبهُ ان استعفي من الجمعية الملكية لانني بلغتُ درجة الاقتناع في موضوع طال فيهِ الجدل والشك ولا يزال الفريق الاكبر من اعضاء الجمعية يشكون فيهِ على قولهِ . فانا اعدهُ انهُ اذا طُلب مني رسميًّا الاستعفاء فاني استعفي حالاً من غير اعتراض . ولكنني لا اعدل عن المجاهرة بما اعتقد انهُ حق ثبت بادلة واضحة متكررة كلما رأيت وجهاً لهذه المجاهرة . ولو كان في نفسي شيء من الريبة لما ترددت عن اظهارها ولكني انكاري الحق جنون مطبق مهما ترتب على الاعتراف بهِ »

فاجابهُ الاستاذ ارمسترنج في عدد ٢٤ ايرين من ناشر بما يأتي
ليكن جوابي لصديقي السر اوليفر لدج قول مريديث

اصوب الشمال اصوب الجنوب هل الحق حقٌّ بغير القرب
ألا الحق حقٌّ ولكنَّ قومي غريقو خلاف وشكٍّ سعيب
يجرع فلان فني الاكل حقٌّ ويعطش فهو بماء شروب
فعدَّ الجميع وسائل عن الحق فالحق مبغاة كلِّ اريب

***

وكنا نحسب ان الامر انتهى عند هذه المناظرة الادبية لان مقام السر اوليفر لدج بين رجال العلم امتن من ان يزعزع ولكن طالعت علينا السينتفك اميركان بالامس وفي صدرها الفقرة الآتية « وردت الاخبار البرقية من اوربا ان الجمعية الملكية في بريطانيا العظمى طلب منها واحد او اكثر من اعضائها ان تفكر في تكليف السر اوليفر لدج ليستعفي من عضويتها لان آراءهُ في السبرتزم تضاد مبادئ الجمعية »

ونحن لا نستغرب ان يطلبَ ذلك بعض اعضاء الجمعية ولكن يتعذَّر علينا ان نصدق ان الجمعية تجيبهم الى طلبهم . نعم اننا نرى ان ما قالهُ الشاعر مريديث ينطبق على السر اوليفر لدج فانهُ ودَّ ان يسمع صوت ابنهِ يخاطبهُ من عالم الغيب فاعتقد انهُ سمعهُ ولو كان الوسيط هو المتكلم ولكن اعتقادهُ هذا لا يحطُّ من قيمة معارفهِ العلمية وهي في الطبقة العليا بين معارف الناس في هذا العصر وكفى المرء نبلاً ان تعدَّ معايبهُ

***

واننا نرى فيما تقدم عبرة لا للذين يعتقدون مناجاة الارواح لان هؤلاء يتعذر صرفهم عن اعتقادهم بل للذين يخدعون بهم فيصدقون اقوال المضلين الذين لا يعتقدون صحة هذه المناجاة بل يستخدمون الادعاء وسيلة للتدجيل . وعبرةٌ اخرى للذين يحسبون اعتقاد بعض العلماء صحةَ امرٍ دليلاً قاطعاً على صحتهِ ولو ناقض كل حقائق العلم المعروفة

غير ان ما نحسبهُ الآن مستحيلاً من الافعال لا ينبغي ان يكون مستحيلاً لذاته بل ان الاستحالة نسبية اي انهُ مستحيل تجاه ما نعلمهُ من الحقائق العلمية فقد نكشف غداً حقائق اخرى تثبت بها صحتهُ